الباب الخامس

الإسلام غداً

- مواجهة الإسلام للصليبية والماركسية.
- الإسلام فوق الزمان والمكان.
- الفراغ في الحياة التوجيهية العامة.
- الأزهر في تنظيمه الجديد.

مواجهة الإسلام للصليبية والماركسية

رأينا الآن، أن الإسلام منذ الاستعمار الغربي للبلاد الإسلامية في آسيا وأفريقيا، من منتصف القرن التاسع عشر حتى اللحظة القائمة، يواجه صليبية هذا الاستعمار جنبًا إلى جنب مع مواجهة سلطانه السياسي والاقتصادي. . .

وهذه الصليبية ليست المسيحية السمحة، وإنما هي (روح الانتقام) من الإسلام؛ تلك الروح التي بعثت فيما مضى على الحروب الدامية في القرون الميلادية الثلاثة: الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر، محاولة الاستيلاء على بيت المقدس وبقيت منذ هزيمتها الكبرى على يد «الناصر صلاح الدين»، مصاحبة لعقلية الغرب في عرضه للإسلام، وفي تصرفاته مع المسلمين على السواء. ولم تزل فيه باقية صحبة هذه العقلية حتى اليوم.

وبعد انتشار الفكر المادي الإلحادي الغربي في بلاد الشرق الإسلامي منذ أعقاب الحرب العالمية الأولى، واجه الإسلام - بالإضافة إلى مواجهته الصليبية السابقة - حملة هذا الفكر ومذاهبه، ولم يزل يواجهه في وقتنا الحاضر، وبالأخص «الماركسية» الإلحادية.

ورأينا أيضًا، أن هذه المواجهة كانت على حساب الإسلام مرة وفي جانبه مرة أخرى. . .

أما في المرة التي كانت على حسابه،

فكانت إصابته من هذه المواجهة إصابة عنيفة:

إذ حلت العصبيات الشعوبية محل الرباط الإسلامي العام، وبرزت الحدود والفواصل وخلقت خلقًا في الوطن الإسلامي، دون أن تعتمد اعتمادًا دقيقًا على المكان الجغرافي أو خصائص الجنس، وإنما تعتمد أولاً وبالذات على الحدود «المفترضة» التي وضعها المستعمل وقواها، حتى يحول دون الترابط النفسي بين الشعوب الإسلامية في الآمال والكفاح قبل أن يحول دور الاختلاط المكاني أو الزماني.

كما تأثرت عقليات بعض الكتــاب من الأدباء، والساسة، فى الشرق الإسلامى بتفكيــر الغرب المادى وبحضارته الصناعــية، وحملت هذه العقليــات لواء الدعوة إليه. ونجحت هذه الدعوة فى تركيا، بالحركة الانقلابية التى قادها «كمال أتاتورك» بعد الحرب العالمية الأولى. ولكن ما كان لها أن تنجح هذا النجاح الظاهر، وتسير حتى الآن، دون عون سياسى وثقافى من «الخــارج»!! وقد تبادل النظام الشيوعى هذا العــون من تركيــا أولاً، ثم حل محله فى المعــاونة النظام الديمقراطى الــغربى الذى تتزعمه أمريكا فى الوقت الحاضر: فجزء واضح من نشاط السياسة الأمريكية - على الأقل النشاط الجامعى، ونشاط المؤسسات الاجتماعية - فى خدمة استقرار «الانقــلاب، أو التجــديد التركى» داخل تــركيــا، وفى خدمــة الدعاية له خــارج ديارها، بين الشــعوب الإســلاميــة الأخرى. وهنــاك مبــالغ لا يستــهان بهــا من المؤسسات الأمــريكية الرأسمالية، تزاد من عام إلى عــام، تحت عنوان: «الخدمات الإنسانية» لــهذا الغرض، ينفق جزء منهــا على الدراسات الإسلاميــة الموجهة فى أقســام ملحقــة بالجامــعات الأمــريكية المشــهورة، بينمــا الجزء الآخــر ينفق على مؤسسات الطبــاعة والنشر، ومكاتب الخبرة أو البحوث المــوزعة توزيعًا منظمًا فى عواصم بلدان الشـــرق الأوســط، والتى تعنــى أو تتصــل بالدراســات الإســلاميــة أو بدراسات الشرق الأوسط.

ويضاف إلى حساب خســائر الإسلام فى مواجهته للصليبيــة والماركسية «الفراغ» الذى خلفه ركــود الفكر الإسلامى فى نفوس المعاصــرين من المسلمين، والذى هيأ فرصة لقــبولهم تحريف الصليبيــة للإسلام باسم دراسات الاستشــراق، ثم بقبولهم إلحاد الماركســية باسم العلم «Scince»... وهذا الفراغ فى نظرى أشد خطرًا على الإسلام، من الهجوم المباشر الصليبى أو الماركسى عليه.

أما ما أفاد الإسلام من مواجهة الصليبية والماركسية أو من الاحتكاك بهما، فهو:

● إيقاظ الوعــى الإسلامى الذى صاحب الحــركات التــحريرية التى قــامت بها الشعوب الإســلامية ضد الاستعــمار الغربى، وذلك بفضل جمــال الدين الأفغانى الذى تزعم إيقاظ هذا الوعى، والذى ركز نشــاطه فى رحلاته إلى مصر، والهند، وتركيــا، وأفغــانستان، وبقــية البلاد الإســلاميــة، لإثارة المسلمين بدافع من دينهم

لمقاومة المستعمر وعدم التعاون معه من جانب، وتأكيد أواصر الأخوة بينهم بطرح الفوارق المذهبية، وعلى الأخص ما بين السنة والشيعة، والاحتفاظ بوحدتهم فى دفع الخطر الصليبى عنهم، من جانب آخر.

وجمال الدين الأفغانى - يعتبر من غير شك - الزعيم الشرقى المسلم لجميع الحركات الثورية ضد الاستعمار الغربى فى الشرق الإسلامى. ولم يكن لجمال الدين بقية من نشاط، فوق ما بذل وعانى فيما بذل منه يصرفها فيما وراء إيقاظ الوعى الإسلامى فى مجالسه الخاصة والعامة.

● المحاولات الفكرية الإسلامية التى قام بها محمد عبده قبيل آخر القرن التاسع عشر، ثم قام بها «إقبال» فى النصف الأول من القرن العشرين. . وما قام به محمد عبده أثمر سلسلة من المفكرين المستنيرين فى فهم الإسلام، بمصر وشمال أفريقيا، وسوريا ولبنان، كان لهم نشاط منهجى، وآخر موضوعى فى الفكر الإسلامى، وإن لم يصل إلى درجة أن يكون مدارس مستقلة فى الإصلاح الإسلامى ولكنه رغم ذلك، كان له أثره حتى اليوم فى الكتابات الإسلامية المتسمة بطابع الفهم السليم لمبادئ الإسلام، وظروف المجتمع الحديث. وما قام به «إقبال» بعده أثمر تأسيس دولة الباكستان، ووضع دستور إسلامى لها على أساس من القرآن.

❁❁❁❁

الإسلام فوق الزمان والمكان

نعم. الإسلام من حيث هو مبادئ، لا يتوقف اعتباره على مكان معين. ولا على جيل من البشر..

وكما ذكر «إقبال»: الإسلام بما اشتمل عليه من مبدأ «الحركة» يعيش مع الإنسان المتحرك، وفى العالم المتغير المتطور.

فهو لا يؤرم بالصليبية ولا بالماركسية، إذ طالما كانت له طبيعة الموجود الخالد، ولا يضار بالهجوم عليه من هنا أو هناك، لأنه عندئذ لا يقبل الفناء...

فخلود الإسلام فى رسالته، ورسالته «التوازن»: التوازن فى قيادة الفرد لنفسه، والتوازن فى علاقة أفراد الأسرة الواحدة بعضهم ببعض والتوازن فى علاقة الأفراد جميعًا، ما بين قريب وبعيد، وما بين حكام ومحكومين.

ولكن الذى يجوز أن يؤرم - ولا أدرى إذا كان يمكن أن يصرع فى يسر أيضًا - هو المسلم.. والمسلم هو إذن، موضوع الهجوم فى حملات الصليبيين والماركسيين. والآثار السلبية لهذا الهجوم تنال منه، إن قدر لها أن تصيب، أكثر مما تنال من الإسلام.

والسؤال الذى يجب أن يلقى الآن، هو: إذا كانت حملات الغرب الاستعمارى - سواء من الجانب الصليبى أو الجانب الماركسى - تجد «فراغًا» عند المسلمين حال دون ملئه حتى الآن ركود الفكر الإسلامى، وعدم قيامه بالدور الإيجابى فى حياتهم المعاصرة، فما هى النسبة التى يملأها «الإصلاح الدينى» الحديث من هذا الفراغ؟؟.. إن مستقبل الإسلام فى الجماعة الإسلامية يتحدد بناء على جواب هذا السؤال. وهذا الجواب يرتبط ارتباطًا وثيقًا بموضوع «الثقافة» الذى يتثقف بها المسلم فى الشرق الإسلامى.

والثقافة فى هذا الشرق الإسلامى، لم تساير الحركات التحريرية التى قامت فيه أول الأمر لمنازلة المستعمر، ولا ما صاحبها من وعى إسلامى عام. وتخلت الثقافة عن هذه الحركات، ولم تعن بتوضيح الوعى الإسلامى الذى صاحبها. ولذا بقى

هذا الوعى «شعارًا» و«نسبة» فقط؛ يحمله المسلم كعنوان له. ولا يدرك من إسلامه إلا أنه: ينتسب إلى الجماعة الإسلامية فحسب.

ونتج عن هذا التخلف: تلك «الانفصالية» التى أرادها المستعمر الغربى منذ أن وضع قدمه فى بلاد المسلمين، وهى الانفصالية فى توجيه المسلم. وبعبارة أخرى هى «دفع» الإسلام عن أن يكون ضمن موضوع ثقافة المسلم المعاصر، ونشأ عن هذه الانفصالية، ذلك «الفراغ» عند المثقفين من المسلمين. ولم يستطع نمو الحركات التحريرية التى أخذت بعد جمال الدين الأفغانى الطابع السياسى القومى، أن ينال من هذه الانفصالية. بل بالعكس: كلما تقدمت هذه الحركات خطوة نحو «الاستقلال السياسى» كلما اتسع البعد فى هذه الانفصالية، لأن الاستعمار الغربى الصليبى كان يضع شروطًا للموافقة على الخطوات الاستقلالية فى البلاد الإسلامية، من شأنها أن تزيد فى عمق هذه الانفصالية، كشرط «حماية الأقليات» فى معاهدة ١٩٢٥ بمصر. وشرط تعهد الحكومة المصرية باتباع «روح» التشريع الغربى فى معاهدة «مونترو» سنة ١٩٣٨، وأمثال هذين الشرطين فيما عقد من اتفاقيات بين المستعمرين الغربيين، وبين دعاة «الاستقلال» فى البلاد الإسلامية الأخرى. وهدف هذين الشرطين، واضح، وهو عدم احتضان الإسلام والأخذ بتعاليمه فى حياة الجماعة الإسلامية، سواء فى توجيه المسلمين عن طريق الثقافة المدرسية أو الجامعية أو ممارسة الفصل والقضاء فى الخلافات التى تقع بينهم.

وتحولت بذلك الحركات التحريرية إلى حركات «عزل» الإسلام عن الحياة العملية العامة للجماعات المسلمة، بعد ما أصبحت حركات «استقلال سياسية» ثم نفذ الفكر الغربى الاستشراقى الإلحادى المادى منه، إلى «البعد» الذى أوجدته الانفصالية السابقة، وكلما بعد الطرف الإسلامى فى هذه الانفصالية، كلما نفذ الفكر الغربى السابق، وكلما قرب إلى دائرة «الفراغ» المتخلف؛ بل كلما اقتحمه وملأ منه جزءًا بعد جزء.

وفى وقت بلغت فيه الحركة الاستقلالية السياسية حداً فاصلاً فى تاريخ الاحتلال الغربى لمصر - وهو وقت معاهدة سنة ١٩٣٦، بما لها من ظروفها إذ ذاك - ظن أحد الكتاب المعاصرين أن الوقت قد آن لإعلان التخلص نهائيًا من الإسلام

واللغة العربية، فنادى فى عام ١٩٣٨ بتقليد الغربيين فى ثقافتهم وفى تفكيرهم وفى تعلم لغتهم قديمًا وحديثًا حرفًا بحرف، بما فى ذلك من خير وشر، وممدوح ومذموم!! أو بعبارة أخرى طلب هذا الكاتب من الحكومة وقتئذ، إعلان هذه «الانفصالية» بصفة قاطعة حتى لا يكون هناك كفاح بين القديم والجديد، وحتى يشعر المصريون بالاطمئنان إذا ما مضوا ثقافياً وروحياً إلى مجموعة شعوب البحر الأبيض المتوسط، وهى الشعوب الإيطالية، والفرنسية، واليونانية. ولاقى هذا النداء ترحيبًا فى بعض الطبقات. كما شجع كثيرين من الشبان فى كتاباتهم ضد «القديم» بناء عن تقليد وتبعية فحسب. ولحق معنى «القديم» عندئذ معنى آخر هو التخلف أو البدائية، كما لحق معنى «الجديد» معنى التقدم والحضارة!!

واستمر هذا الوضع، على عهد دعاة الاستقلال السياسى، طوال النصف الأول من قرننا الحاضر، إلى أن جاء التحول الأخير فى السياسة التحريرية سنة ١٩٥٢، وتبعته محاولة «تصفية» ماضى الاستعمار فى الثقافة والتوجيه، وفى مقدمة بقايا هذا الماضى: تلك «الانفصالية» التى أشرنا إليها، فى موضوع الثقافة المدرسية والجامعية. ولكن هذه التصفية - فيما أعتقد - تحتاج إلى وقت، حتى يضعف أثرها السلبى فى التوجيه، وتحتاج قبل الوقت إلى «تربويين» من صنف آخر، لا يعيشون على آثار مدسة «ديوى»(١). وإنما يفهمون معنى (المواطن) فهما صحيحًا، وأنه يعيش على ماض، بروح الحاضر، متطلعًا إلى المستقبل. وماضيه هو الذى يكيف شخصيته الخاصة، التى يتميز بها عن معاصر معه فى وطن آخر. والتى يقوم عليها مستقبل (وطنه)، ذلك الوطن الذى يعيش هو فيه، ومن أجله.

ولكن محاولة تصفية ماضى الاستعمار فى الثقافة والتوجيه. وقفت - حينا - عند برامج المدارس التابعة لوزارة التربية والتعليم. ولم تتخطاها حتى الآن إلى مؤسسة أكثر أهمية وأبلغ أثرًا فى الحياة العامة، والحياة الجامعية الخاصة فى مجال الدراسات الإسلامية، وهى (الأزهر) حتى صدر القانون بتنظيمه الجديد فى صيف عام ١٩٦١.

---

(١) هو الفيلسوف الامريكى John Dewey (ولد سنة ١٨٥٩). ومؤلفاته (تأثير داروين على الفلسفة) سنة ١٩١٠، و(الديمقراطية والتربية) سنة ١٩١٣، و(الطبيعة والتجربة) سنة ١٩٢٥.

الفراغ فى الحياة التوجيهية العامة

وبجانب انفصال موضوع الثقافة، وعزله عزلاً تامّاً عن الإسلام، ذلك الانفصال الذى هيأ للفكر الغربى الاستشراقى والمادى فرصة قبول المثقفين له، دون أن يجدوا فى ثقافتهم التى يحملونها وفى أنفسهم ما يناقش هذا الفكر، حتى يكون قبولهم إياه نتيجة اقتناع وتأمل - وجد فراغ آخر فى الحياة التوجيهية العامة، وهى حياة الجماهير من العمال والفلاحين. وهذا الفراغ سببه عزلة الأزهر عن الحياة الجارية، وهى عزلة رسمت له فى ظل الاستعمار، أو عاون على بقائها الاستعمار. وأصبحت حياة العمال والفلاحين خالية من توجيه صالح يعالج لهم مشاكلهم اليومية، والمشاكل الأخرى التى تأتى بها الحضارة الحديثة، وخضعوا للأنانية فى حل هذه المشاكل، وللتيارات السطحية التى تحملها الدعاية المغرضة لمذهب من المذاهب الإنسانية المعاصرة. وتقلص الإسلام من جديد فى حياة العامة كما تقلص من قبل فى ثقافة المثقفين. وسارت حياة الطرفين تحت تأثير «الصدفة» وتحت ما يجد من نزعات فكرية توجيهية، من وقت لآخر.

وتعقدت حياة الفلاح والعامل...

● وزادت مشاكلهما فى الأسرة بسبب فهم تعدد الزوجات، والطلاق، وفهم (التوكل على الله)، وأثر ذلك على مستقبل الأسرة.

● واضطرب رأى الفلاح فى (التعاون) الاقتصادى، والتأمين على الثروة الحيوانية، وفى استخدام وسائل الحضارة الحديثة فى الزراعة لتقليل نفقات الإنتاج مع الزيادة فى كمه ونوعه.

● واضطرب رأى العامل فى الصلة التى بينه وبين صاحب العمل، وفى تقدير رأس المال الدائر فى تشغيل العمل.

● وحجز الثرى مدخراته من المال عن تشغيلها فى سوق الصناعة، أو عن التعامل بها فى السوق المالية بوجه من الوجوه.

وسبب هذا كله (سوء فهم) لهذه المشاكل... ولا يرفع سوء الفهم هذا فى حياة الجماهير إلا توضيح موقف الإسلام من كل مشكلة من هذه المشاكل.

ولقد أراد الاتجاه الحديث فى الإدارة الحكومية بعد الحرب العالمية الثانية، أن يعمل على حل هذه المشاكل فى حياة الفلاح والعامل، وحياة الجماهير على العموم باسم (الإرشاد الاجتماعى)، و(الخدمة الاجتماعية) و(التوجيه الريفى)، وما شاكل ذلك من منظمات. ومع هذا لم تصل هذه المنظمات - رغم ما توفر لها من إمكانيات - إلى جذور هذه المشاكل فى نفس الفلاح والعامل، لأن هذه الجذور مشتبكة اشتباكًا قويًا مع نوع «الإيمان الذى يسكن نفس كل منهما من قبل، وهو إيمان اختلط فيه التسليم بالخرافة وغشى عناصره سوء الفهم، أو سوء التبصير. وكان ذلك نتيجة «للفراغ» الذى ذكرناه وهوأمر ترتب بدوره على عزلة الأزهر عن الحياة الجارية.

وكلا النوعين من «الفراغ»: فى حياة المثقفين، أو فى حياة الفلاحين والعمال، أتاح الفرصة لغير الإسلام فى التوجيه، وفى التطبيق العملى فى الحياة.

واتجاه الصليبية فى الدراسات الاستشراقية للإسلام، أن اتخذ - بحكم طبيعته - من المثقفين أو من الذين يباشرون شؤون التثقيف مجالاً لنشاطه، فالفكر المادى الإلحادى فى صحبة الدعوة الماركسية يستطيع أن يكون له مجال أوسع، يتناول المثقفين وغيرهم من طبقات الجماعة. لأنه كما ذكرنا له جانب أكاديمى وجانب آخر شعبى.

ولو أن الإصلاح الدينى، فى مقابل ذلك كان متتابعًا، وله دعاة يزداد عددهم بانقضاء الزمن، وكان متنوعًا فى مجال الفكر الأكاديمى، وفى مجال الدعوة الدينية، لرجح جانب الإسلام فى الاحتكاك مع الصليبية والماركسية، لاستطاع -بعد فترة قصيرة فى حياة الأمم - أن يملأ ذلك «الفراغ»، سواء فى حياة العامة أو حياة الخاصة. ولكن انقطاع الإصلاح فى الفكر الإسلامى، وظهوره من فترة إلى أخرى، مضافًا إلى قلة أعوانه، وضيق نطاقه، يجعل من الصعب التنبؤ بالنتيجة الأخيرة لهذا الاحتكاك، وإن كان يجعل من السهل تصور طول الزمن الذى سيمر به كفاح الإسلام، وكذا تصور المرارة التى يحملها هذا الكفاح إليه.

أما أنه من الصعب التنبؤ بالنتيجة الأخيرة لهذا الاحتكاك، فإن يقظة الوعى الإسلامى - وإن كانت لا تقوم على فهم سليم للإسلام أو على قوة الإيمان به إلى

حد التضحية فى سبيله، بل تقوم أكثر على تعصب المسلمين له، كمصدر ينتسبون إليه - وتزايده، كلما اشتدت صليبية الغرب أو ماركسية الشرق ضغطًا على المسلمين، ولا يسهل احتمال «سقوط» الإسلام فى ميدان هذا الاحتكاك.

أما طول الزمن الذى يجب أن يمر به كفاح الإسلام، وأما شدة المرارة التى ينتظر له أن يذوقها فى صراعه مع الصليبية والماركسية - فذلك مرتبط بوضع الإصلاح فى الفكر الإسلامى قوة وضعفًا، وهذا الإصلاح نفسه مرتبط فى حاله، بالقائمين بشأنه، وبالمؤسسات الإسلامية، التى لها طابع البحث أو الدعوة فى مجال التعاليم الإسلامية. . .

وفى مقدمة هذه المؤسسات: **الأزهر**.

هناك ضعف لا شك فيه:

* إن قبول بعض الكتاب المسلمين - هنا فى الشرق الإسلامى - تفكير القرن التاسع عشر الاستشراقى والمادى الإلحادى، وقبولهم أيضًا هجوم بعض كتاب الغرب فى القرن السابق على الكنيسة الكاثوليكية هناك، ومحاولتهم تطبيق ذاك الهجوم هنا على الإسلام والعلماء، وتأثر كثيرين بهذه المحاولة، ليس آية فحسب على وجود (الانفصالية) فى التعليم، التى عاون عليها الاستعمار الغربى والتى لم تزل رواسبها باقية، وربما تبقى قوية فترة أخرى من الزمن - بل آية أيضًا من جانب آخر على أن الأزهر لم يؤد رسالته، أو لم يتمكن فيما مضى من أداء رسالته كما يجب، وإلا لقضى على هذه الانفصالية منذ زمن طويل، أو على الأقل لاستطاع أن ينفذ بتعاليم الإسلام إلى نفوس المثقفين المدنيين!! وهناك إذن لا شك «ضعف» فى الأزهر. . .

* وآية أخرى على هذا الضعف، بقاؤه فى عزلة عن مواجهة المذاهب الاقتصادية الاشتراكية، ببيان «توازن» الإسلام فى الجانب الاقتصادى فى حياة الجماعة، وكذلك بقاؤه فى عزلة أيضًا عن أن يبدى الرأى فى حل المشاكل الاجتماعية التى تعانيها اليوم الشعوب الإسلامية من وجهة نظر الإسلام. ولعلنا نذكر: أن «إقبال» تطلع فيما سبق إلى وجود بحوث فقهية اقتصادية اجتماعية إسلامية، يتغلب بها على الأزمات الحالية فى الجماعة الإسلامية، ويقابل بها نظم الغرب الاشتراكية.

* وآية ثالثة على هذا الضعف: أن تفكير الشيخ محمد عبده الإصلاحى قبل وإنما خارج الأزهر، بينما عورض معارضة قوية داخل الأزهر. ولم تزل هذه المعارضة تظهر من وقت لآخر فى صورة فتاوى رسمية حتى الآن... فالفتوى بتمجيد تعدد الزوجات، وبتحريم ترجمة القرآن، وبصلاحية الإسلام للشعوب البدائية فحسب، تمثل معارضة واضحة لتفكير الشيخ محمد عبده الإصلاحى فى داخل الأزهر، كما تمثل فى الوقت نفسه جموداً فى فهم الإسلام.

هناك ضعف لا شك فيه...

وسببه أن الأزهر دار بتفكيره فى صورة معينة، انقطع بها عن صورة الحياة التى تمر عليه، ولكنها لم تستطع أن تنفذ إلى داخله فتلتقى بالصورة التى يحتفظ بها، وتتفاعل معها. وما سمى بإصلاح للأزهر فى فترات متكررة يشبه مرور صور الحياة القائمة عليه، دون أن تنفذ إلى داخله فتتفاعل مع ما له من صورة أصلية. وإصلاح الأزهر لذلك كان «إضافات» ملحقة، وظلت إضافات تابعة، لم تتكون منها ومما كان يعنى به الأزهر من قبل، «ذاتية» واحدة.

طلب «إقبال» فى «تجديد الفكر الدينى فى الإسلام» تأكيد صلة المسلم بالعالم المادى الواقعى، وتنحية نظرة التصوف العجمى من حياة المسلم، وهى النظرة إلى هذا العالم على أنه «شر» يجب الهرب منه. وعلى هذا النحو ظلت «الإضافات» التى أضيفت إلى الفكر الأزهرى التقليدى. بمثابة هذا العالم الواقعى فى نظر التصوف العجمى.

هذا «الانقطاع» عن الحياة «كان واضحاً فى حياة الأزهر فى القرن التاسع عشر» وكان هو نفسه مركز إصلاح الشيخ عبده إذ ذاك، فيما سماه: إصلاح الأزهر، وإصلاح المحاكم الشرعية، وإصلاح الوعظ والتدريس، وإصلاح اللغة العربية. وأحس المستعمر الغربى بهذا الانقطاع فساعد على تقويته، عندما تولى الإشراف على التعليم، وحال دون مباشرة المتخرجين فى الأزهر التعليم الرسمى فى أية مرحلة من مراحله، إلا إذا أعدوا أعداداً خاصاً رسمه هو، بدعوى عدم ملائمتهم للعصر وروحه!!

لم يعن الأزهر عناية جدية بتعليم اللغات الأوروبية[1]، ولا بمنهج البحث الأوربى فى دراساته. . . ومن ثم كانت استطاعة المتخرجين فيه لمواجهة الصليبية الاستعمارية، والماركسية الإلحادية، محدودة للغاية كما ظل عرضهم للفكر الإسلامى فى الدائرة التى هى أقرب لدائرة التفكير فى العصور الوسطى، منها إلى دائرة التفكير المعاصر. وقد أصيب الأزهر بنكسة فى السنوات الأخيرة[2] وعاد إلى الجمود وحارب اتصال علمائه بالفكر الغربى المعاصر، ووقوفهم على منهاج البحث فى الجامعات الأوربية، كما نزل بمستوى رسالة الأزهر إلى تعلم اللغة العربية وتعليمها وحدها، مهملاً شأن الدراسات الإسلامية، أو واضعًا إياها فى منزلة ثانوية، وبذلك ضعف الأمل فى استعانة الفكر الإسلامى الإصلاحى على تقوية شأن نفسه بمؤسسة إسلامية عالية مثل الأزهر.

الأزهر فى رأيى، هو قمة المؤسسات الإسلامية فى العالم الإسلامى، التى كانت تستطيع مواجهة الصليبية الاستعمارية والماركسية الإلحادية، وكانت تستطيع أيضًا أن تقدم للحياة الإسلامية فى مصر، ووراء مصر، أكبر العون فى حل المشكلات التى تدور فى حياة الأسر الإسلامية، والاقتصاد الإسلامى والتوجيه الإسلامى. وبذلك كان يمكن أن تكون هناك قوة فكرية روحية ثالثة فى الشعوب الإسلامية، تواجه القوتين العالميتين الرئيسيتين اليوم: الصليبية الغربية، والشيوعية الدولية. ولا عوض عن الأزهر، وكل يوم يمر عليه فى أزمته يزيد فى ضعف قيمته، ويقلل من الانتفاع به فى تكوين تلك القوة الثالثة التى كان يجب أن يكون لها شأن اليوم.

إصلاح الأزهر ليس رفع مرتبات، ولا إعادة طبع الكتب المتأخرة، ولا اقتباس نظام وزارة التربية والتعليم، ولا ملاحقة هذه الوزارة بطلب مشورتها والإفادة من خبرة رجالها، ولا بزيادة كم العلماء والطلاب. . . **إصلاح الأزهر فكرة، وتنفيذ رسالة، هى فهم الإسلام، وحسن عرضه، والملاقاة به لما يواجه المسلم من مشاكل.** وهى

---

(١) أدخل الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمود شلتوت - بعد توليه المشيخة فى أكتوبر سنة ١٩٥٨ تعلم اللغة الإنجليزية إجبارياً فى المعاهد الثانوية، وأنشأ معهد (الإعداد والتوجيه) كمعهد عال تدرس فيه ست لغات: الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والإندونيسية، والأردية، والسواحلية.

(٢) من سنة ١٩٥٤ إلى ١٩٥٨.

رسالة فـريدة، لا يمكن لمؤسسـة تعليميـة أخرى أن تنهض بهـا. ولذلك لا تجدى مشورة وزارة التربية والتعليم فى شأنها.

ومشيـخة الأزهر ليست وظيـفة يذل أو يستخـدم القائم بأمرها لهدف سـياسى وليست إدارة لجـامعة على نحو أيـة جامعة أخـرى فى الشرق.. هى إيمان وإدراك للقيم، وفـهم صادق للحيـاة والإيمان، هو الإيمان بالله أولاً، والإدراك للقيم: هو الإدراك أولاً للكرامة الإنسـانية، والفهم الصادق للحـياة: هو الفهم أولاً لوضـعية الشـعوب الإسـلامـية فى خـضم المجـال الدولى المعاصـر، وفى التنافس الغـربى والشرقى على جعلها تابعة تسير فى فلك هذا أو ذاك.

إن حركـة التحرير فى مـصر - بعد النـصف الأول من قرننا الحاضـر - تحاول (تصفيـة) رواسب الاستعمار فى السيـاسة التعليمية، ومن هنا كـان عليها أن تضع الأزهر وضعه الصحيـح، فتباشر فيه تصفيـة رواسب الماضى الضعيف، وتجعله ذا رسالة إيجابيـة فى تهيئة المجـال الحيوى لمصر فى أفريقـيا الإسلاميـة، وفى مقابلة الاستعمار الغربى، فى أية صورة من صوره فى قوة، وفى الإسهام فى حل مشاكل الشعوب الإسلامية، الاجتـماعية والاقتصادية، وهى كثيرة معقـدة، وفى مقدمتها شعب مصر.

إن (السراى) على عهد الخديوية والملكية على السواء، كان لها هدف خاص من الأزهر يبعده عن رسالته الأصلية. وأن الأحزاب السيـاسية المصرية على اختلافها، منذ تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ زادت من ضـعف الأزهر بإدخال الاتجاه الحزبى فى تصريف شؤونه.

إن الإسلام فى غده يتأثر قوة وضعفًا، بقوة الأزهر وضعفه، اليوم وبعد اليوم!

وقـد جاء صـدور القـانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١... إيذانا بتطور جـديد فى تاريخ الأزهر...

فما هو دور الأزهر التعليمى والثقافى والاجتماعى فى ظل القانون الجديد؟

الأزهر.. فى تنظيمه الجديد

صدر القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ بإعادة تنظيم الأزهر، وهذا الكتاب فى إعداد طبعه للمرة الثالثة. . .

وبصدور هذا القانون، أعلنت الثورة المصرية عن اتجاهها فى حزم وفى قوة لتصفية رواسب الاستعمار فى الأزهر!! وهى تلك الرواسب التى تتمثل:

- **أولاً**: فى (عزلة) المتخرج فى الأزهر عن المجتمع الذى يعيش فيه.

- كما تتمثل مرة أخرى فى (احتراف) هذا المتخرج بالدعوة إلى الإسلام وبالرسالة الإسلامية، واتخاذها مهنة يكسب منها قوت يومه، ويسعى عن طريقها لتحصيل أمور معيشته.

و«العزلة» وكذلك «الاحتراف» بالدعوة الإسلامية وبرسالة الإسلام يشكلان خطرًا على القيم الإسلامية نفسها، وعلى تعاليم الإسلام. وهو ذلك الخطر الذى يحول دون أن يكون هناك تفاعل بين الحياة الإنسانية فى المجتمع الإسلامى والتعاليم الإسلامية، وأيضًا يحول دون أن يقف العالم الأزهرى من التعاليم الإسلامية موقف المتجرد عن غاية شخصية فى فهمها، وفى استلهام النصوص القرآنية ونصوص السنة الدالة عليها، من غير أن يتأثر فى موقفه هذا برأى سابق مبيت فى نفسه لسبب أو لآخر.

فأوجب هذا القانون إقامة جامعة الأزهر على أساس أن تكون هيئة تعنى بدراسة ألوان المعرفة المختلفة التى تعين على ممارسة النشاط الإنسانى فى شتى جوانب حياة المجتمع، كى يتزود بها الطالب الذى يتخرج فى المعاهد الأزهرية الثانوية، بجانب ما يتزود به من معرفة ذات مستوى خاص لتعاليم الإسلام ولقيمه، وكذلك بالدراسات العربية الخاصة التى تعينه على فهم التعاليم الإسلامية وأهداف رسالة الإسلام فهما قويًا واضحًا، يكون مصدر إشعاع سلوكى فى حياة الفرد والمجتمع معًا.

وعن طريق الكليات المختلفة - فى دائرة ما يسمى بالكليات النظرية والعملية - التى تتكون منها جامعة الأزهر بناء على هذا القانون، يستطيع الطالب المتخرج فيها

أن يمارس نشاطه الإنسانى والإسلامى معًا، بحيث يكون ذا مهنة يؤديها فى المجتمع، وفى الوقت نفسه صاحب دعوة إلى الإسلام بسلوكه الشخصى وبسلوكه فى مهنته، وبدعوته بالقول كذلك. وهو فى دعوته عندئذ لا يكون محترفًا بها: وإنما يدفعه إليها إيمانه بقيمة الرسالة الإسلامية التى كشفت له عنها جوانب المعرفة التى درسها فى كلية من كليات هذه الجامعة. وهو عندئذ أقرب إلى أن تكون دعوته إلى الله وفى سبيل الله: لله خالصة، دون أن يشرك فى إخلاصه لله فى دعوته غاية أخرى، هى تحصيل الدنيا، وتحصيل متعتها عن طريق هذه الدعوة نفسها.

وإذا استطاعت جامعة الأزهر بوضعها الذى قصد إليه القانون أن تحقق الغاية المرجوة منها - فسيكون هناك طراز آخر من المتخرجين فى الأزهر، يعرف المجتمع الذى يعيش فيه كما يعرف المجتمع المعاصر، وما يسيطر عليه من اتجاهات مذهبية إنسانية عديدة، كما يشعر فى نفسه بحرارة الإيمان برسالة الإسلام بعد أن وضحت له جوانبها وقيمتها إثر الموازنة التى تتكون حتمًا فى نفسه، بعد وقوفه على ما للإنسان من معرفة متغيرة، وما لله من رسالة خالدة. وفى هذا الوقت يكون الإيمان بالله وبرسالته هدفه الأعلى فى الحياة الذى يجب أن يسعى إليه دون أن تشوبه شائبة أخرى تضعف من شأنه، أو تعوق فاعليته على الإنسان فى سلوكه وفى تفكيره.

وإذا وصل أمر المتخرج فى جامعة الأزهر إلى هذا الوضع، فالأمل كبير فى أن يعيد الداعية إلى الله وإلى الإسلام وضع أصحاب الدعوة الأولين، الذين قادوا الإنسانية وأخرجوها من الظلمات إلى النور، وساد مجتمعهم بالرسالة، كما سادوا هم على أنفسهم وفى مجتمعهم بالتقوى وبالإيمان.

ومجتمعاتنا الإسلامية كى تتم نهضتها، وكى يتم بعثها، فى حاجة ماسة إلى ريادة قوية، تستمد قوتها من الفهم الصحيح ومن الإيمان. وهى إذا احتاجت إلى «العلم»، واحتاجت أيضًا إلى «الصناعة» لتوفير وسائل العيش ولدفع حاجة المحتاج ومرض المريض، فإنها أكثر احتياجًا إلى ما يرفع ذلة المستضعف، ويدفع عنه خوف الإقدام فى الحياة ليحقق السيادة الذاتية، وسيادة المثل الإنسانية والقيم فى الحياة

البشرية. والريادة السليمة - كما أشرنا - التى تقوم على وعى قوى وفهم سليم لرسالة الإسلام، هى ذلك العامل الذى يرفع وحده ذلة المستضعف وخوف الخائف فى المجتمع. وليس «العلم» وليست «الصناعة» هى التى تحول ذلة الضعيف إلى قوة، وخوف الخائف إلى الإقدام.

وأثر هذا القانون - على نحو ما شرحنا - سوف لا ينعكس على المتخرج فى هذه الجامعة من أبناء الجمهورية العربية المتحدة وحده، وإنما ينعكس على كل مبعوث وافد استطاع أن يكون واحدًا من المتخرجين فيها. وبذلك يكون أثر هذا التنظيم الجديد فى إحياء الأمل المنشود، ليس فى مصر وحدها، وإنما فى كل بلد إسلامى، وليس فى مجتمع الجمهورية العربية المتحدة وحدها، وإنما فى كل مجتمع إسلامى فى الشرق وفى الغرب على السواء.

وبهذا القانون ازداد الأمل فى غد الأزهر وفى غد الإسلام معًا. وفق الله القائمين على الأمر هنا وهناك إلى أن تكون خطواتهم مسددة.

فهل يؤمل كذلك فى أن تكون ريادة علماء الأزهر فى الجامعة ريادة إيجابية: يفهمون ظروف الحياة التى يعيشون فيها كما يفهمون رسالة الإسلام فى حياة المسلمين؟ هل تصبح الدراسة فى الكليات العلمية، والعملية، والنظرية ذات صبغة إيمانية وإسلامية بفضل توجيه الريادة العليا فى الأزهر؟ نرجو أن يتغلب طابع الإيمان على طابع السياسة فى توجيه الجامعة وما يلحق بها من معاهد!!

❁❁❁❁